

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد السادس والسبعين

١ مايو سنة ١٩٣٠ - ٢ في الصفحة ١٣٤٨

الأقليم وأثره في التاريخ

نهوض الأهم وانحطاطها أو بالحري تاريخها، مرهون بمحنة عوامل أساسية هي العامل الجغرافي والعنصر البيولوجي والذات التاريخي. والذات التاريخي - العامل البيولوجي وكل عامل منها قد يصيبه شيء من التحول على حدته ولكن كلاً منها يتأثر بالعوامل الأخرى إلى حد بعيد. أما العامل الجغرافي فهو أقربها إلى الاستقلال عن غيره. فاللسان على شدة تأثره بالأحوال الإقليمية من عصور الجليد إلى الآن لا يستطيع أن يمنع أثرها ولا أن يغيره. على أنه يستطيع أن يزيل الغابات يقطع أشجارها والقضاء على بعض الحيوانات البرية بقنصها وقتلها وإضافة الرتبة بموالاته الأخذ منها من غير إعطائها - أي من غير تسيدها - وري الصحاري ولشر الأحياء التي تنقل جراثيم الأمراض.

هذا من العامل الأول. أما العامل البيولوجي فمداره أثر الوراثة البشرية وعلاقتها بالتحول الفجائي (mutation) والانتخاب الطبيعي، والهجرة، والزواج، والزاوج بين الشعوب. وأما العامل الأتروبولوجي فيشتمل على أسباب المعيشة على سمها وتوابعها أبوابها، كالطعام واللباس والسكن والادوات والفنون والمستنبطات المختلفة. ويتصل بالعامل

جهة وتكون الارض الجيولوجية من جهة اخرى يعين الاماكن التي تكثر فيها المواد اللازمة للصناعة والاماكن التي تفرع فيها الصناعات وتزدهر . كذلك يعين الاقليم التابع التي تفيض منها القوى الانسانية وتطلق . وتفسر الاقليم يمتد على الهجرة والهجرة تسبب الحروب التي يأتي في اثرها اختلاط وتلاصق في الافكار لا يبد منها لارتقاء العمران . يضاف الى ذلك ان أثر الصحة والمرض في سير التاريخ الاقتصادي قد لا يقل مقاماً عما تقدم . فان نصف سكان الكرة الأرضية طاجزون عن القيام بأعمالهم قيام الأصحاء بها لأنهم يصابون بالطفيليات المرضية . والمرض كما لا يخفى بضعف الأمم ويقوض أركان الامبراطوريات . وفي هذا القدر كفاية لبيان مالموامل البيولوجية من أثر كبير أساسي في تاريخ العمران . فلتنظر الآن في عامل الاقليم على حدته

اذا تبينت المناطق الاقليمية على سطح الكرة الأرضية (كما هي معينة الآن ازاء ما كانت عليه في عصر الايوسين)^(١) انفصلت المناطق المعتدلة التي تحدها الاصقاع المتجمدة من الشمال ومن الجنوب ، عن المناطق الاستوائية بواسطة منطقتين جافتين تمتد فيهما صحاري الارض الكبرى . أما المناطق التي تكثر فيها الحضر ويستطيع الانسان أن يعيش فيها فهي المناطق المعتدلة والاستوائية . ولكن المنطقة المعتدلة تسيطر على المنطقة الاستوائية بجزء كبير . اذ فيها تحدث تقلبات الطقس المتوازية - وتعرف بمنطقة العواصف الزوبية - وهذا النوع من الطقس على ما أثبت الاستاذ الزورث هتقتن هو أبعد الموامل أثرأ في اطلاق القوة البشرية ، حيا على التلال والاقليم

الشيون بالقرود وعينيه راؤنا فيما سبق بان الاقليم في شؤونه هذا لا يزال في مجال التحسين . ولكنا لا نكاد نرتاب في أن الجفاف الذي أصاب الارض في أواخر العصر الثلاثي^(٢) حل أسلافنا على النزول من الأشجار الى السهول . والآلة الجيولوجية تبين لنا ان سلسلة جبال الحلمايا كانت مرتفعة في ذلك العصر . وقد قيل ان منشأ الانسان الاول كان الى الشمال من هذه السلسلة . لأنه لما أخذت الارض تجف في هذه البقاع أخذت الحراج تكثف رويداً رويداً الى الجنوب حتى اصطدمت بجبال حلمايا الشاهقة . فزال كذلك من

(١) و(٢) الايوسين لحظة اقترحا السر تتارلس ليل الجيولوجي تطلق على العهد الاول من العصر الثلاثي (Tertiary) وهو العصر الذي بدأت فيها الاحياء البوثة بالظهور من نحو ثمانية ملايين سنة وهو ثلاثة اقسام التليل الحدائة الايوسين locene والمتوسط الحدائة الميزوسين miocene والكثير الحدائة پليوسين Pliocene

تلك المنطقة . اما سكانها الاثريون قاضطروا وان تحولوا طبقاً لمقتضيات الحياة الجديدة - اي ان يصبحوا قادرين على ان يعيشوا ارضية وبدأوا كالأكل الحياتيات - او يفرضوا وسواء كان هذا الرأي في جانب الصواب كله او بعضه ، فما لا شك فيه ان الانسان كان قد ارتقى واستقل بصفاته الخاصة به لما طفا على الكرة عصر الجليد من نحو خمائة الف سنة . واكثر آثار الانسان في عصري الجليد الاول والثاني وجدت في اوربا ، وما لم نجد غيرها في سائر البلدان فيبقى متعذراً علينا معرفة آثار تقدم الجليد وتأخره ، اي مدته وجزره ، في ارتقاء انسان اثناء العصر الحجري القديم

والمرجح ان في العهد الاخير من العصر الحجري القديم اي حين اخذت طبقة الجليد تقشع ورويداً ورويداً مزاجحة الى الشمال ، كانت منطقة العواصف الزوبية واقعة فوق شمال افرقية مما جعل الصحراء الكبرى بلاداً خصبة ومرجاً فضرة . والمظنون كذلك ان قبائل الانسان الحديث قدمت اوربا من افرقية وجنوب آسيا من نحو عشرين الف سنة قبل المسيح وهذا التاريخ تقديري فقط ولما اخذت رقعة الثلج تحسر عن الارض مرتدة الى الشمال تبعها منطقة العواصف الزوبية التي يكثر فيها تقلب الطقس ، واخذت الصحراء الكبرى تدخل ورويداً ورويداً في المنطقة الخافتة التي تفصل عادة بين المنطقة المتدلة والمنطقة الاستوائية . ولا تزال نبت في بعض نواحي الصحراء الكبرى على تماسيح واسماك تعيش في انحاء العذب في واحات متشورة هنا وهناك . ولكن هذه الواحات معزولة لاصلة بينها وبين البحار او البحيرات المروقة . فالحيوانات المائية التي تعيش في هذه الواحات انما تعيش في بقايا مياه الصحراء التي كانت في ذلك العصر خضراء ممرعة ، بل وفي بعض نواحيها كانت اقرب الى المستنقعات منها الى المروج . وجفاف الصحراء كان باعث الذي دفع بامواج البشر تترى شمالاً وجنوباً

٢

في ذلك الاثناء كانت البلاد حول البحر الابيض المتوسط والامتدة الى المراقين وتركستان اخضبت البدان واغناها بالحويبة الانسانية . وهذه الحقيقة الاقليمية احدثت بانقلابات خطيرة في تفرق الشعوب . فقبائل الجدلينين ، وهم من بقايا قبائل العصر الحجري القديم ، اخذوا يسيرون شمالاً امام الحجاج التي كانت تثبت في البدان التي بنقش عنها سائر الجليد ، جارين في آثار الحيوانات التي تقدمت سير الحجاج . اخيراً وجدوا قوسهم محصورين بين الحجاج وشواطئ بحر تزيين فضايق مجال العيش في وجوههم فعاشوا هناك عيشة فقيرة وفاقة مكثفين بصيد حمار البحر وحني كبوش الطبق . اما السلائل المنحدرة من شعوب العصر الحجري التي ظلت تقيمة في شمال افرقية واسبانيا فالسائت حضارة تعرف بالحضارة القزوينية

(لسبة الى بحر قزوين) وفي عهد نال انتشر ابناءؤها شمالاً حتى وصلوا الى غرب آسيا ولما اخذت السهول التي تتكشف من ارتداد الجليد، تضيق بظيان الحراج عليها قلت الحيوانات التي كانت معتاد الصيادين القدماء في تحصيل الرزق . فاضطروا ان يلتفتوا الى مصادر اخرى للطعام . فصحروا جمعين للطعام وصيادين في آن واحد ، واصبحوا يأكلون الجوز واللوز والكبوش والحنطة البرية . وازرايح انهم حسبوا ذلك نازلة حلت بهم حينئذ ولكنها كانت شاحداً لهم ومبازراً للارتقاء . لانهم انتقلوا من جمع الطعام الى زرعها ونجيبه اي الى فنون الزراعة الاساسية . وكانت هذه الخطوة طبيعية . والظاهر ان هذا الانتقال اي استنباط فنون الزراعة تم في نحو الالف الخامسة قبل المسيح في الشرق الادنى . فني بعض الاماطير ان الالهة ايزس وجدت حنطة على جبل الكرمل في فلسطين واعطتها لابنها . ولعل هذه الاسطورة تشتمل على حقيقتين اساسيتين : (الاولى) المرجح ان النساء سبقن الرجال الى استنباط فكرة الزراعة — زراعة الحنطة — لان عمل الرجال كان لا يزال في سارح العيد والقص (ثانياً) والمرجح كذلك ان زراعة الحنطة استنبطت اولاً في سورية او في جوارها . وحوالي سنة ٥٠٠٠ ق . م . كانت زراعة الحنطة قد انتقلت بال عراق من فلسطين فاستقرت بعض الطوائف في ميسنجا . والمرجح كذلك انه لما رأى الانسان كيف تفضل الحياوة التي يستعملها « للزق » خطر له ان يفضل ادواته يدور . فاذا صح ذلك فالزراعة هي سبب انتقال الانسان من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الجديد . وعلى كل حال فالزراعة والادوات الحجرية المنصولة الخاصة بالعصر الحجري الجديد ظهرت في الشرق القديم .

والمرجح ان صناعة الخزف والنسج استنبطت في اوقت الذي كشف به عن فنون الزراعة . ثم بنيت البيوت الاولى واستقرت المعيشة . وتلا ذلك تدجين الحيوانات . والظاهر ان الصيادين استنبطوا تدجين الحيوانات اولاً ولكن الزراعة المستقرين تعلموا هذا الفن وانتقوه ونشروه . ولم تأخر صناعة المعادن الفلزية عن الظهور مع ان قروناً انتقضت والمعدنان الوحيدان المستعملان هما الذهب والنحاس — النحاس للادوات والذهب للزينة . على ان العصر الجليدي لم ينقض تدريجياً . بل كانت تأتي فترة يرتد فيها الجليد ارتداداً سريعاً ثم تليها فترة اخرى يثبت فيها الجليد على حاله او يرتد ارتداداً بطيئاً او يتقدم قليلاً الى الامام . والظاهر ان سبب تقدم الجليد الى الامام بدلاً من ارتداده كان ارتفاع سطح الارض . والثابت ان ارتفاعاً من هذا القيل كان في دور الحدوث في منتصف القرن الخامس قبل المسيح . فتج عنه امران . (الاول) ازدياد سقوط الثلج في مرتفعات ستي الراقدين

فتجم عن ذلك طوفانات عظيمة في فصل الربيع سنة بعد سنة ، فاضطرَّ السكان أن يخلوا
بعض المدن . وذكريات تلك الايام المروعة لأزوال محفوفة في قصة الطوفان وغيرها من
الأساطير العراقية القديمة . (الثاني) على أن أثر ذلك في مصر كان على أعظم جانب من
الخطورة ذلك ان وادي النيل ، كانت ، قروناً قبل حدوث هذا الارتفاع في سطح الكرة
مستقفاً لا يقطن . فلما ارتفعت الأرض جُفِّفَ المتصفح . وأصبحت المنطقة الخصبه
المتدة على ضفتي النيل هدفاً لزراع البلدان المجاورة . هذا على ما يظهر كان منشأ الحضارة
بمناها الصحيح في مصر . فلما وسخت أصولها ساعدها بوقع مصر الجغرافي على التقدم
والتفوق على الحضارات الاخرى المجاورة لها

وعليه يرى القاري ان تغير الاقليم في الصور القديمة حمل الانسان على الانتقال من
الصيد الى الزراعة . والثابت ان الحضارة الاركية أي الحضارة القائمة على زراعة الحنطة
والمعيشة المستقرة بيوتها وخرقها ومنسوجاتها وصناعاتها المدنية كانت منتشرة من سوريا
الى فلسطين الى ستي دجلة والفرات قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م . هذه البقعة من سطح الكرة
الارضية كانت مهد العالم الحديث - وسبب ذلك اقليمها ، وانهارها العظيمة ، وانها موطن
الحنطة الاصلية والملتقى الطبيعي لتيارات الحضارات المختلفة التي بشت عليها هجرات القبائل
من الشرق والغرب والشمال والجنوب

وكان الانسان قد استنبط ، قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م الكتابة والتقويم والبرق والصجلة
(انسولاب) وضع المحور المحترمة . ففي الالف التي تلت ذلك أخذت هذه الحضارة ترتقي
وتتسع نطاقاً . وكان ذلك الزمن زمن انخفاض في الأرض ، ورطوبة في الجو في منطقة المراعى
الاسيوية وشبه جزيرة العرب ، ولذلك كان السكان الرُّحَّل الذين يقطنون هذه البلدان
يمشون فيها ويتكاثرون لا يدقمهم الحفاف الى هجرتها والتعدي على بلاد جيرانهم . أما
ما بلغت الحضارة المراتبة القديمة فأكبر دليل عليه هذه الآثار النفيسة التي عثر عليها في
أور الكلدانيين والتي يعود تاريخها الى ٣٥٠٠ ق . م

ولكن الأرض الصالحة للسكن والمعيشة في هذه البقعة من الأرض - الشرق الأدنى -
كانت آخذة في الازدهام بالسكان . وهذا الازدهام اتفق وقوعه في عهد حدث فيه
ارتفاع في سطح الأرض عنه جفاف شديد . فتجم عن ذلك ان الحضارة الاركية تداعت
أركانها في موطنها الأصلي وأخذت في الانتشار الى مواطن اخرى في آسيا وأفريقيا وأوروبا

٣

وقد كان مطلع العهد الجديد زاهياً زاهراً . فان الحضارة المصرية ، وقد استخضها

ماناته من فوز سابق في ميادين الابداع ظلت تنتقل من فوز الى فوز . فبنت
هاكل نعمة بالحجارة ، وشيدت الاهرام الحجية ضخامتها ودقة بنائها ، وارتقت الرياضة
وعلم الفلك وسيطر على الدولة فئة معينة همها الحكم (يورقراطية) . وبميد ذلك قام
الملك سرغون في العراق وهو اول الفاتحين النظام ، فانشأ دولة في « موج المايا على رؤوس
الامل » اي بقوة الحيوش

والحيوش كانت استنباطاً جديداً . فالصائدون الاقدمون كانوا ولا شك بحاربون
ولكن حريمهم لم تكن منتظمة قط . والظاهر ان جامعي الطام ، والزراع الاولين كانوا
ينشون ميسرة سلام واستقرار بوجه عام . ولكن الحرب ابتدأت لما ابتدأ الانسان
المستقر الميسرة يناضل جاره على ارضه وحقوقه . وانتشرت فكرة الحرب الى القبائل
الرحل القاطنة على حدود البلاد المستمرة التي فيها سكان مستقرون فوافقت طبائها
لانه كان في امكان هذه القبائل ان تصيب في الحروب نجاحاً كبيراً لانها في اثناء انتقالها
من حالة « القنص والصيد » الى حالة القبائل الرحالة تعلم ابناءؤها تون الفروسية واجادوها .
والمرجح ان الفرس وجد اولاً في مراعي اسيا حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . فلما بدأ عصر
الجناف المشار اليه انطلق هؤلاء الفرسان من المراعي وطنوا على البدان الزراعية ، بجلبهم
ويفرسانهم . فكانوا في الحرب حينئذ يدعة مروعة كبدعة الدبابات في الحرب الكبرى . نفسوا
ارض مصر والعراق واصبحت حضارتهما منهم في خطر الانقراض

وهذا الضغط الذي نزل بالزراع دفعهم الى الانتشار في الجهات الاخرى . فنزلت
جالياتهم الاولى في اوربا حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ولكن لم تنقض الف سنة اخرى الا وكانوا
قد دخلوا في ارض اليونان وفرنسا وروما . وقد انتشرت حضارتهم في البحر
على السواحل واصبح البحر الايض المتوسط حينئذ بحيرة تفتح بسفهم . حتى فقد وصل
بعض بحارة الابحار الى المحيط الاطلسي نحو سنة ٢٢٠٠ ق . م . وفي الوقت نفسه اتصلت
موجة من امواج الهجرة شرقاً فوصلت الى الهند ثقافة جديدة ومنها اتصلت بالصين
والمرجح ان ذلك كان جرثومة الحضارة الصينية . وقد تكون القارة الاميركية قد
حصلت على بزور حضارتها الاولى عن طريق الصين ومضيق بيرنج الذي كان طرفاً متصلين حينئذ
وظل التوسع البحري قائماً في الالف التالية (٢٠٠٠ ق م ١٠٠٠ ق) وخصوصاً في
الجانب الشمالي الغربي من اوربا واتصلت التجارة البحرية بارلندا والبدان السكندناوية
فارتقت الحضارة الارلندية ارتفاعاً لا يمتثل في الغالب إلا بالاقليم الجلف المنشط الذي
سبق الرطوبة الشديدة التي حتمت في جو ارضه قاضفت قوى الارلنديين وقتت من عزائمهم
[السنة في الجزء القادم]